نفيل تشمبرلن

١٨٦٩ — ١٩٤٠

بذل غاية ما يستطيعه انسان من جهد، وتعرض لأشد ما يتعرض له سياسي من نقد، لكي يصون سلام العالم لخاطر أمته وحفظ سمعتها، وانهكت الوعود التي قطعت له وتوالى الاعتداء، وكان لا مفر من حرب يعلم انها مدمرة ولكنه أقبل عليها بعزم الصلب الذي عرف به في جميع مراحل حياته، ووقى على ختامها وهو يتمنى ان تتاح له فسحة من العيش ليرى هزيمة الشر، وشر القوة الغاشمة والحنث بالعهود والنظم والاستبداد والاضطهاد، على ما قال في بيانه الموجه الى الأمة البريطانية صباح الأحد ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ثم في بيانه في مجلس النواب ظهر اليوم نفسه. ولكن القدر اراد له غير ذلك فصح ما خشي هو ان يصح، إذ شبه نفسه في خطبة خطبها في ربيع سنة ١٩٣٩ بالوزير «بت» الصغير فقال انه كان مهتماً كالوزير «بت» بشؤون الاصلاح الداخلي ولكنه مضطر مثله الى الانصراف عنها الى شؤون السياسة الخارجية والحرب، ورجو ألا يكون مصيره واحداً لان «بت» توفي قبل ان شهد ظفر بريطانيا في الحروب النابوليونية

كان جوزيف تشمبرلين والد نفيل من كبار رجال الاعمال في مدينة برمنغهام الانكليزية فلما خاض ميدان السياسة ظهر فيه على الاقران فما انصف به من الأهلية وناقب الرأي وادرة المعارضة فتبأوا له في اواخر القرن الماضي بأنه بالغ أعلى مناصب الدولة — رئاسة الوزارة — ولكنه قصر دونها. ولولا مسألة استقلال ارلندا الداخلي ومعارضته فيه خلف غلادستون على التغلب زعيماً الاحرار ورئيساً للوزارة. ولولا دعوته الى الحماية التجارية والتفضيل الامبراطوري بعد ذلك خلف بلفور في زعامة المحافظين. وكأنما قدر ان يخفق في كل ما يجد على تحقيقه في نفسه مكره اوستن تلك فوجهه الى مدرسة رجبي فالى جامعة كمبردج ثم الى مدرسة العلوم السياسية بباريس وبعدها الى المانيا. وانتخب اوستن عضواً في مجلس النواب وهو في التاسعة والعشرين من عمره وتقلب في مناصب الدولة الرفيعة وتقلد أعلاها ومنها وزارة المالية ووزارة الخارجية ولكن تمسكه بأدب السياسة المتوجب عليه في انكلترا حجب بينه وبين الرئاسة في حدث لا محل لتفصيله هنا

وعهد جوزيف تشمبرلين الى ابنه الثاني نفيل في إدارة الاعمال التي [illegible] وهي في جزائر بهاما حيث قضى سبع سنوات يجاهد [illegible] ويعود [illegible] (نفيل) حيث لا ينمو المال فأخفق وعاد الى انكلترا يتولى ادارة اعمال الاسرة في برمنغهام

ولكن القدر شاء أن يبلغ نفيل المنصب الذي صبا اليه والده وأعده له فعمد [illegible] يدخل ميدان السياسة الانكليزية [illegible] وهو في الخمسين من عمره

عني وهو في برمنغهام بمسائل الاصلاح المحلية فانتخب عضواً في مجلسها البلدي ثم محافظاً للمدينة . فأصبح مساكن العمال ونظم شؤون الصحة العامة وأنشأ بنكاً للتوفير . وقد فعل ذلك على الرغم من ان اخوانه المحافظين أتهموهُ بالاشتراكية وهي تهمة كانت في ذلك الوقت كافية لتنسي من لم يكن مثلهُ صلب العزيمة عن المضي في الاصلاح . ودعي الى تقلد منصب في الحكومة في لندن سنة ١٩١٥ — ١٩١٦ فتقلده بضعة أشهر ثم تخلى عنهُ لان الوقت لم يكن ملائماً للسير فيه وفقاً لما يراه وعاد الى برمنغهام

وفي سنة ١٩١٨ رشح نفسه للنيابة ففاز بها وكان في الخمسين من عمره وترقى سريعاً فعين وزيراً للبريد فوزيراً للمالية فترة قصيرة ثم وزيراً للصحة سنة ١٩٢٤ . ولا يزال الرأي الانكليزي في الدوائر المطلعة مجمعاً على أنهُ أعظم وزير تقلد وزارة الصحة في بريطانيا . ذلك بأن خبرتهُ في منصب المحافظة لمدينة برمنغهام وعنايته بشؤون مساكن العمال والصحة العمومية فيها أهلتهُ لمعالجة المشكلات نفسها في نطاق أوسع . ففي خمس سنوات بكامل في سبيل تحسين مساكن العمال وفاز باقرار «قانون تشمبرلن لبناء المنازل» وأشرف بمقتضاه على بناء مليون منزل جديد للعمال يدخلها نور الشمس ويتخللها الهواء النقي وتتوافر فيها أسباب النظافة والدفء . ومن المأثور عنهُ أنهُ قال : « لا بدَّ من إصلاح الحال قبل خروجي من هذه الوزارة » . ووجه عناية خاصة الى الأمهات النفساوات وخفض معدَّل الموت بينهنَّ لأن والدتهُ توفيت نفساء على أثر وضعه

فلما عصفت رياح الأزمة الاقتصادية العالمية ببريطانيا سنة ١٩٣١ وألف مكدونلد الوزارة القومية الأولى أختير نفيل تشمبرلن وزيراً للمالية وظل محتفظاً بهذا المنصب الى أن خلف المستر بولدوين رئيساً للوزارة في مايو سنة ١٩٣٧ على أثر تتويج الملك جورج السادس

في وزارة المالية تجلت أخلاقه . فهو حازم لا يعرف التردد ، منظم لا يرضى التراخي ولا الاضطراب ، منطقي لا تغلبه العاطفة ، صريح يأبى المداهنة ، محافظ في الشؤون المالية لا ينحرف الى المغامرة في تجربة الجديد من المذاهب . كانت الدولة تواجه شبح الافلاس عندما تقلد وزارة المالية سنة ١٩٣١ فوضع يده على الدفة وسير السفينة في بحر متلاطم الأمواج الى بر السلامة والرخاء . وزار الميزانية بعد إضطراب ووفر المال فتتابع الاعمال بعد إزوائه في خزائن البنوك وانتعش الدولة عشرات الملايين بمقدم أكبر صفقة تحويل مالية في التاريخ إذ خفض الفائدة على الدين العمومي ومن لا يرض بهذا الخفض فليتقدم سندائه وليأخذ ماله . فما انقضت سنة ١٩٣٧ حتى كانت بريطانيا على طريق الرخاء . هذه الاعمال رفعت من شأنه في مجلس الوزارة وعززت من مركزه وبدا يلعب على ظن المتتبعين لمشاهد السياسة البريطانية انهُ الخلف المحتمل للمستر بولدوين بعد انتهاء حفلات التتويج في مايو سنة ١٩٣٧ وكذلك كان

وما كاد يتقلد رآسة الوزارة حتى اقترح لزملائه فيها ان يرئيس تجديد خطة معينة يريد تنفيذها. وعندما اختار معاونيه في شتى المناصب الوزارية لم يضر الى ألمعيتهم فقط بل قدم على ذلك قدرتهم على التعاون معاً في تنفيذ الخطة التي يرسمها. وقد اضطر آنفاً بعد أن أن يتخلى أسفاً عن معاونة هذا الوزير او ذاك فخرج ايدن من الوزارة اولاً (فبراير ١٩٣٨) ثم دف كوپر (أكتوبر ١٩٣٨) ثم هوربيشا (١٩٤٠).

ومما لا ريب فيه أن اسم نفيل تشمبرلين سيبقى أبداً متصلاً بحوادث سبتمبر سنة ١٩٣٨ وطيرانه — لأول مرة في حياته — ثلاث مرات الى المانيا علهُ يستطيع ان ينقذ سلام اوربا مما كان يهددهُ في تلك الأيام العصيبة. وكان مقتنعاً حقاً وصدقاً ان الاتفاق مع الدكتاتورين مستطاع. ولكنهُ على ما يوحي لم يكن يصدق ان في العالم حكاماً يستطيعون ان يخلفوا أيمانهم الذي وراء صوف الخلق. فالناس الذين تعوَّد معاملتهم في ميدان الأعمال وميدان السياسة كانوا لا يخالفون وعداً ولا ينكثون عهداً قطعوه. فلم يكن في وسعهِ ان يتصور ان رئيس دولة يستطيع ان ينكث عهداً قطعهُ لرئيس وزراء بريطانيا!

وكان عليهِ ان يواجه حقيقة أخرى. وهي ان فرنسا مرتبطة بمعاهدة مع تشيكوسلوفاكيا تلزمها بمعونتها مهما اذا اعتدت عليها المانيا. وكانت بريطانيا قد تعهدت لفرنسا بأن تحارب معها اذا خاضت حرباً مع المانيا لم تكن فرنسا فيها الدولة المستفزة أو المعتدية

ولكن كان هناك ما يدعو الى ان فرنسا لم تكن حازمة أمرها حينئذٍ فتهوض بعهدها لتشيكوسلوفاكيا ويضاف الى هذا ان تأهب بريطانيا الحربي لم يكن على أوفاه.

ولا بدَّ لنا في هذا المقام من ان نورد في إيجاز ما يدور في تأييد سياسة ميونخ ونقدها

١ — مهما تكن تشيكوسلوفاكيا جمهورية عظيمة الشأن فانها ليست مما تجدر ان تقيم سوق الحرب من اجلها. فالرد على ذلك: — هل يوجد ما تجدر منهُ بدٌّ؟

٢ — كانت تشيكوسلوفاكيا غير عادلة في معاملة أقلياتها. الرد: — كان في الحكومة التشيكوسلوفاكية وزراء ألمانيون. واذا ليست حالة الأقلية الالمانية في بلاد السوديت بحالة لأقليات العنصرية في بلدان اوربية اخرى تمتعت الامتيازات التي كان يتمتع بها السوديت ويتمتعون بها. وهذا مسلم لا ريب فيهِ. ولكن ما يلام تشيكي على أنهُ مضطهدة حقاً. ولقد كانت تشيكوسلوفاكيا تحسب جمهورية نموذجية بين دول الصغرى في جمهوري قبل ان تعقد اتفاقها وزادت جريدة التيمس ان تحلَّ تلك المشكلة على حساب تشيكوسلوفاكيا باقتطاع منطقة السوديت منها مع انها كانت تعلم ان معظم الماني السوديت — لكي لا أقول كلهم — يودون

٣ — كان من المتعذر على بريطانيا وفرنسا مساعدة تشيكوسلوفاكيا مباشرة. لأنها في قلب

اوربا ولا وصول اليها . الردُّ : — خير وسائل الدفاع عن صديق معتدًى عليه هي مواجهة المعتدي من اوراء . فانحصر البحري وشغل سلاح المانيا الجوي ومواجهة خط سيجفريد قبل تمام انشائه، جميع هذه وسائل كانت كافية لمساعدة تشيكوسلوفاكيا اذا اعتدت المانيا عليها . ومن المرجَّح ان هتلر نفسهُ لم يكن غافلاً عنها . ثم هل كانت بولندا في سنة ١٩٣٩ أقرب الى بريطانيا وفرنسا من تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٨

٤ — لو حاربت تشيكوسلوفاكيا لسحقت ؟ الرد : — كان لتشيكوسلوفاكيا خطوط محصنة في مناطق جبلية وجيش مسلح بعد مليونًا ووراءه مصانع سلاح عظيمة (مصانع سكودا) فاجتياح المانيا لتشيكوسلوفاكيا إجتياحاً سريعاً في سنة ١٩٣٨ لم يكن أمراً محتملاً من الناحية العسكرية

٥ — أنقذت تشيكوسلوفاكيا باتفاق ميونخ . الرد : دلت الحوادث على أن الضد هو الواقع

٦ — كان الشعب البريطاني ممتنعاً عن تأييد تصريح يضمن سلامة تشيكوسلوفاكيا ضماناً ينفذ من تلقاء نفسه اذا اعتدي عليها . الردُّ : — إذا كان تشمبرلن قد أمضى بتصريح من هذا القبيل فانهُ كان ولاريب ينتقص من منزلته في نفوس الشعب البريطاني . وهل أفضى ضمانه لبولونيا الى مثل هذا الاعتراض ؟ إن الدول الديمقراطية ما تزال قادرة على الاستجابة الى الزعامة الحازمة . وقد تبعتهُ الأمم البريطانية مفتحة البوق الى الحرب تنفيذاً للضمان البولوني

٧ — لم تكن بريطانيا متأهبة للحرب في سبتمبر ١٩٣٨ . الردُّ : — الواجب يقضي على كل حكومة ان تكون قدرتها على الدفاع وافية في كل وقت . ثم ألم يخسر الحلفاء خسارة عسكرية عظيمة بتسليم حصون تشيكوسلوفاكيا وتسريح جيشها المسلح وسلاحها الجوي وسقوط مصانع سكودا في أيدي الألمانيين ؟ . وهل تكفي سنة من التأهب الحربي لتعويض خسارة من هذا القبيل؟

ومهما يكن من أمر فالسياسة التي جرى عليها تشمبرلن في سبتمبر سنة ١٩٣٨ وانتهت الى اتفاق ميونخ كان لها أصل في طبيعته وهو مقت الحرب والنفور منها أو أصل في الواقع المفوس وهو خطر نشوبها حينئذٍ . وستبقى هذه السياسة موضوعاً للجدال والمناقشة بين مؤيديها وناقديها الى أن تتاح جميع الحقائق للمؤرخ المنصف في المستقبل . ولا ريب في ان تشمبرلن بذل غاية ما يستطيعه انسان لصون السلام في تلك الأيام فاز فوزاً مؤقتاً لا غير . ولكن مساعيه أظهرت العالم أجمع على حقيقة المقاصد البعيدة التي يقصدها زعماء الوطنية الاشتراكية

ولم تثبت أن لا مفرَّ من الحرب مهما استطاع تشمبرلن ان يتكلم صباح ٣ سبتمبر ١٩٣٩ بلسان أمة متحدة تؤيده بدان الامبراطورية وأمم وجماعات في مختلف انحاء العالم . وجميع الذين اشتغلوا معه في أشهر الحرب الأولى من سبتمبر ١٩٣٩ الى مايو ١٩٤٠ — عند ما استفتان — يشهدون ان العزم الصلب الذي تجلى في مساعي لصون السلام قبل نشوب الحرب لم يبارح قط في مواصلته . وانهُ من أعظم بواعث الأسى أن يقضي قبل أن يبلغ ثمر النصر ولكنه رأى تباشيره